

معلومات البحث

تاريخ الاستلام: 2026/02/17

تاريخ القبول: 2026/03/17

Printed ISSN: 2352-989X

Online ISSN: 2602-6856

المكان المفتوح ودلالاته في رواية رحيل ل محمد العيد بهلولي

Open Space and Its Symbolic Dimensions in
Mohamed Al-Eid Bahlouli's Novel Departure

نوال عباسي^{1*} ، روباش إيمان²

¹جامعة المسيلة (الجزائر)، iman.roubache@univ-msila.dz

²جامعة المسيلة (الجزائر)، Morgan.samia85@gmail.com

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى دراسة دلالات المكان المفتوح في رواية رحيل ل محمد العيد بهلولي، مع التركيز على البعد الرمزي والوجودي لهذا الفضاء في النص الروائي، وربطه بالإشارات القرآنية المتعلقة بالقرب، البعد، الحركة، والمصير. يُبرز البحث أن المكان المفتوح ليس مجرد إطار جغرافي للأحداث، بل مجال للتخييل والذاكرة، ومساحة لانكشاف الذات وتجربة التيه والتحول، بما يتناغم مع البنية النفسية للشخصيات. وقد تم استحضار آيات من سور سبأ (51-53)، وق (41)، ويونس (22) لتوضيح ثنائية القرب/البعد، والأمان/الخطر، والوعي/الحركة، وإظهار كيف يضيف النص القرآني أبعاداً روحية على القراءة الرمزية للرواية. ويخلص البحث إلى أن المكان المفتوح يمثل بنية دلالية مركزية في النص، حيث تتفاعل الشخصيات مع الفضاء الخارجي والانكشاف الداخلي، في حركة مزدوجة بين الرحيل الجغرافي والتحول الوجودي.

الكلمات المفتاحية: المكان المفتوح، الرواية، دلالة، الرحيل، القرآن الكريم، القرب، البعد، المصير.

Abstract:

This study aims to examine the significance of open spaces in the novel Departure (Rahîl) by Mohamed Al-Eid Bahlouli, focusing on the symbolic and existential dimensions of space in the narrative, and linking it to Quranic references related to proximity, distance, movement, and destiny. The research demonstrates that open space is not merely a geographical setting for events, but a field of imagination and memory, a space for self-revelation, and an arena of disorientation and transformation, reflecting the psychological structure of the characters. Verses from Surah Saba (34:51-53), Qaf (50:41), and Yunus (10:22) are invoked to illustrate the dichotomies of proximity/distance, security/danger, and awareness/movement, highlighting how the Quranic text adds spiritual dimensions to the symbolic reading of the novel. The study concludes that open space represents a central semiotic structure in the text, where characters interact with both external space and internal revelation, in a dual movement between geographic departure and existential transformation.

Keywords: Open space, novel, symbolism, Departure, Quran, proximity, distance, destiny..

1. مقدمة:

يشكل المكان عنصراً بنويًا فاعلاً في الرواية الحديثة، إذ يتجاوز كونه إطاراً للأحداث ليغدو حاملاً لرؤية العالم ومكتفياً للدلالات النفسية والاجتماعية والرمزية. فالرواية، بوصفها فناً يقوم على تمثيل التجربة الإنسانية في بعدها الزمني والمكاني، لا يمكن أن تستغني عن الفضاء الذي يحتضن الشخصيات ويؤطر حركتها ويكشف تحولاتها. غير أن التحول الذي شهدته الكتابة الروائية في القرن العشرين جعل من المكان عنصراً منتجاً للمعنى، لا مجرد خلفية صامتة للأحداث. وهكذا أصبح الفضاء الروائي بنية دلالية تسهم في تشكيل الرؤية الفكرية والجمالية للنص، وتكشف عن طبيعة العلاقة بين الإنسان ومحيطه.

وقد أكد غاستون باشلار في كتابه جماليات المكان أن الفضاء ليس حيّزاً هندسياً فحسب، بل هو مجال للتخييل والذاكرة، وأن الإنسان لا يسكن المكان بقدر ما يسكنه المكان في أعماقه، حيث تتحول الأمكنة إلى صور حميمة تتداخل مع التجربة الوجدانية (باشلار، 1984، ص 36). فالمكان، وفق هذا التصور، يرتبط بالبنية النفسية للذات، ويعكس حالات القلق والطمأنينة والانتماء والاغتراب. ومن هنا فإن دراسة المكان في الرواية هي في جوهرها دراسة للإنسان في علاقته بالعالم.

كما يرى حسن بحراوي في بنية الشكل الروائي أن الفضاء الروائي يؤدي وظيفة تنظيمية ودلالية داخل النص، إذ يسهم في بناء الحبكة وتوجيه حركة الشخصيات وإبراز التحولات التي تعرفها الأحداث (بحراوي، 1990، ص 121). فالفضاء ليس معطى ثابتاً، بل عنصراً متحركاً يتفاعل مع بقية المكونات السردية كالزمن والشخصية والحدث. ومن هذا المنطلق، فإن تحليل المكان في الرواية يقتضي النظر إليه ضمن شبكة العلاقات التي تؤسس المعنى الكلي للنص.

وفي السياق ذاته، يشير يوري لوتمان إلى أن الفضاء الأدبي يمثل نظاماً من العلامات يعكس ثنائيات دلالية كبرى، مثل الداخل/الخارج، الانفتاح/الانغلاق، القرب/البعد، الحرية/القيد (لوتمان، 1977، ص 218). وهذه الثنائيات لا تُفهم في بعدها المكاني المجرد، بل في أفقها الثقافي والرمزي، حيث يصبح الانتقال من فضاء إلى آخر تعبيراً عن تحول قيمي أو وجودي. وعلى هذا الأساس، فإن المكان المفتوح في الرواية غالباً ما يرتبط بالحركة والبحث والانطلاق، في مقابل المكان المغلق الذي يدل على الانحباس والثبات.

وانطلاقاً من هذا المنظور النظري، تكتسب دراسة المكان المفتوح في رواية رحيل لـ محمد العيد بهلولي أهميتها، لأن العنوان ذاته يحيل إلى فعل حركي يستلزم فضاءً ممتداً يحتضن الانتقال والتحول. فـ رحيل لا تقدّم الرحيل بوصفه انتقالاً جغرافياً فحسب، بل باعتباره تجربة وجودية تتقاطع فيها أسئلة الهوية والانتماء والمصير. والمكان المفتوح في هذا السياق يتحول إلى مجال رمزي تتجسد فيه معاناة الشخصية وهي تعبر فضاءات مترامية بحثاً عن معنى أو خلاص.

وتتعمق دلالة المكان المفتوح إذا ما قورنت ببعض الإشارات القرآنية المرتبطة بالفضاء والنداء والقرب والحركة، كما ورد في القرآن الكريم. فالقرآن يوظف مفاهيم "السير في الأرض" و"المكان القريب" و"المكان البعيد" و"النداء" توظيفاً يربط بين الحركة المكانية والتحول المعنوي، مما يمنح الفضاء بعداً روحياً يتجاوز حدوده الفيزيائية. فالمكان في هذا الأفق ليس مجرد مسافة، بل تجربة اختبار ووعي، وقد يكون البعد الجغرافي قريباً للقرب الوجودي، كما قد يكون الاتساع الظاهري مقروناً بضيق داخلي.

إن المكان المفتوح في الرواية الحديثة، وفي رحيل على وجه الخصوص، يتخذ أبعاداً متعددة: فهو فضاء للتيه حين تفقد الشخصية مرجعياتها، وفضاء للتحويل حين تعبر من مرحلة إلى أخرى، وفضاء للبحث حين تسعى إلى إعادة تعريف ذاتها. وبهذا المعنى، يغدو الفضاء المفتوح بنية رمزية تعبر عن قلق الإنسان المعاصر، الذي يتحرك في عالم واسع لكنه يظل مشدوداً إلى سؤال المعنى.

وعليه، فإن هذه الدراسة تنطلق من فرضية مؤداها أن المكان المفتوح في رواية رحيل ليس عنصرًا زخرفيًا أو وصفًا خارجيًا، بل مكونًا بنيويًا ودلاليًا يسهم في تشكيل الرؤية الفكرية للنص. كما تفترض أن استحضار المرجعية النقدية الحديثة، إلى جانب الإشارات القرآنية المتعلقة بالفضاء والقرب والحركة، يتيح قراءة أعمق للمكان بوصفه تجربة إنسانية تتجاوز حدود الجغرافيا إلى أفق الوجود والمعنى.

أولاً: المكان المفتوح بين التيه والمصير (سورة سبأ 51-53)

يتجلى البعد الوجودي للمكان المفتوح في الرواية من خلال تصوير لحظات الفرع والانكشاف، حيث يصبح الفضاء الممتد مجالاً للهروب المستحيل أو المواجهة الحاسمة. ويمكن الاستئناس في هذا السياق بما ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَعُوا فَلَا قَوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْعَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ (سبأ: 51-53).

تتضمن هذه الآيات ثنائية "المكان القريب" و "المكان البعيد"، وهي ثنائية دلالية عميقة يمكن إسقاطها على تجربة الرحيل في الرواية. فالشخصيات تتحرك في فضاءات مفتوحة ظاهريًا، لكنها قد تُؤخذ "من مكان قريب" أي من داخل واقعها الضاغط، بما يعكس مفارقة بين الاتساع الجغرافي وضيق المصير. كما أن عبارة "من مكان بعيد" تحيل إلى الوهم بالنجاة عبر البعد المكاني، وهو ما يتقاطع مع تجربة الشخصيات التي تبحث في الرحيل عن خلاص قد لا يتحقق.

ثانيًا: النداء من مكان قريب :

يرتبط المكان المفتوح في الرواية بلحظة انكشاف حاسمة، تتحول فيها المساحات الممتدة من فضاءات للحركة إلى مسارح للمواجهة. ومن أعمق الدلالات القرآنية التي يمكن أن تُسهم في إضاءة هذا البعد قوله تعالى في القرآن الكريم:

﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾ (ق: 41).

تأتي الآية في سياق الحديث عن البعث والجزاء، حيث يُستدعى الإنسان إلى موقف الحساب بنداٍ صادر من "مكان قريب". وهذا التعبير يثير دلالة مركبة؛ فالقرب هنا ليس تحديدًا جغرافيًا بقدر ما هو إعلان عن حتمية المواجهة وسرعة الاستجابة. إنه قرب لا يُقاس بالمسافة، بل بالقدر والمصير، بحيث يصبح النداء ملاصقًا لوجود الإنسان، مهما بدا بعيدًا في ظنه.

القرب بوصفه إلغاءً لوهم البعد

في البنية السردية للرواية، يتأسس فعل الرحيل على افتراض ضمني مفاده أن الابتعاد المكاني يُنتج تحررًا نفسيًا، وأن الانتقال إلى فضاءات مفتوحة - كالصحراء أو الطريق أو المدينة - يتيح للشخصية أن تتخفف من ضغط الواقع ومن ثقل الأسئلة الموقفة. غير أن مفهوم "المكان القريب" كما ورد في قوله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾ (ق: 41)، يُفكك هذا التصور، ويقوّض وهم المسافة بوصفها وسيلة للانفصال عن المصير.

البعد المكاني وحدود فاعليته

تُوهَم الفضاءات المفتوحة بالانفلات؛ فهي بلا جدران ولا حدود مرئية، وتمنح إحساسًا بالاتساع والحرية. غير أن هذا الاتساع يظل خارجيًا، في حين أن القلق أو السؤال الوجودي كامن في الداخل. ومن ثمّ، فإن الرحيل لا يُقصي الأزمة، بل ينقلها مع الشخصية حيثما ذهبت. فالمسافة الجغرافية لا تعني مسافة شعورية، والابتعاد في المكان لا يساوي التحرر من الذات.

في هذا السياق، يصبح "المكان القريب" مفهوماً مضاداً لوهم البعد؛ إذ يؤكد أن الحقيقة ملازمة للإنسان، وأن النداء لا يصدر من أقصى الأفق، بل من تخوم الوعي نفسه. وهكذا يتبين أن القرب في دلالة القرآنية ليس قرباً فيزيائياً، بل قرب انكشاف وحتمية.

الرحيل كحركة دائرية لا خطية

من منظور سردي، قد يبدو الرحيل حركة خطية تمتد من نقطة انطلاق إلى نقطة وصول. غير أن القراءة الرمزية تكشف أنه حركة دائرية تعود بالشخصية إلى ذاتها. فالخروج إلى الفضاء المفتوح لا يعني الانفصال، بل قد يكون وسيلة لاكتشاف ما كان مخبوءاً في الداخل. وقد أشار غاستون باشلار في جماليات المكان إلى أن الفضاءات الكبرى تستثير في الإنسان تأملاً عميقاً، وتجعل الوعي أكثر صفاءً أمام اتساع الكون (باشلار، 1984، ص 210). وبالمقاييس إلى الرواية، فإن الصحراء أو الطريق لا يُعدان الشخصية عن ذاتها، بل يجعلانها أكثر حساسية لصوتها الداخلي، وأكثر اقتراباً من سؤالها الجوهري.

تضاعف الصدى الداخلي في الفضاء المفتوح

المكان المفتوح، بدل أن يشتت الانتباه، يخلق فراغاً سمعياً وبصرياً يضاعف صدى الداخل. ففي الصحراء، حيث الصمت والامتداد، لا يبقى للشخصية إلا صوتها الداخلي. وفي الطريق، حيث الحركة المستمرة، يتكرر السؤال ذاته مع كل خطوة. أما في المدينة، رغم صخبها، فإن الاغتراب يعمق الشعور بالعزلة، فيرتد الإنسان إلى ذاته.

وهكذا يتحول الفضاء المفتوح من مهرب إلى مرآة؛ مرآة تعكس هشاشة الذات وتبرز قلقها. فكلما ابتعدت الشخصية عن مكانها الأول، ازداد اقترابها من حقيقتها. وهذا ما يجعل "القرب" مفهوماً وجودياً يتجاوز الإحداثيات الجغرافية.

القرب بوصفه حضور المصير

إذا كان البعد يوحي بإمكانية التأجيل، فإن القرب يدل على الفورية والحضور. ومن هنا، فإن النداء "من مكان قريب" يعني أن لحظة المواجهة ليست مؤجلة إلى نهاية الطريق، بل ملازمة لكل خطوة في الطريق. إن المصير يسير مع الإنسان، لا ينتظره في محطة بعيدة.

وبهذا المعنى، يصبح الاتساع المكاني في الرواية إطاراً ظاهرياً يخفي خلفه حقيقة أعمق: أن الإنسان لا يستطيع الإفلات من ذاته، وأن الرحيل لا يُلغي السؤال بل يعيد صياغته. فالقرب هو اقتراب من الحقيقة، ومن الوعي، ومن لحظة الإدراك الحاسمة.

المفارقة الدلالية: اتساع الخارج وضيق الداخل

تتأسس الرواية على مفارقة لافتة: كلما اتسع الخارج، ضاق الداخل. وكلما ابتعدت الشخصية في الجغرافيا، اقتربت من مركزها الوجودي. وهذه المفارقة تجعل المكان المفتوح مجالاً لاختبار الذات، لا للهروب منها.

وعليه، فإن "القرب" في هذا السياق ليس نقيض "البعد" بالمعنى المكاني، بل نقيضه بالمعنى الوجودي. إنه إلغاء لوهم الانفصال، وتأكيده على أن الحقيقة تقيم في الداخل، وأن الفضاء المفتوح ليس سوى طريق يقود إلى اكتشافها.

وهكذا يتجلى أن الرحيل في الرواية، مهما بدا امتداداً في المكان، هو في جوهره اقتراب من نقطة مركزية في الوعي؛ نقطة يتلاشى عندها البعد، ويتحوّل الاتساع إلى لحظة كشف قريبة لا مهرب منها.

النداء والوعي المفاجئ

تتضمن الآية فعل الأمر: "واستمع"، وهو توجيه إلى الإصغاء والانتباه. وهذا الإصغاء يحمل بعداً تأملياً؛ إذ لا يتعلق بسماع صوت خارجي فحسب، بل بالاستعداد الداخلي لتلقي الحقيقة. ومن هنا يمكن قراءة النداء في الرواية بوصفه لحظة وعي مفاجئ، تكشف فيها الشخصية أن رحلتها لم تكن سوى مسار يقودها إلى مواجهة ذاتها.

وقد أشار يوري لوتمان إلى أن التحول في الفضاء الروائي غالباً ما يقترن بتحول في الوعي (لوتمان، 1977، ص 222)، أي أن الانتقال المكاني يصاحبه انتقال إدراكي. وفي هذا الإطار، يصبح "المكان القريب" لحظة تقاطع بين الخارج والداخل، بين الامتداد الجغرافي والانكشاف النفسي.

المفارقة بين الاتساع المكاني وضيق اللحظة

المكان المفتوح في الرواية يوحي بالاتساع والحرية، غير أن النداء من "مكان قريب" يكشف عن ضيق اللحظة الحاسمة؛ لحظة المواجهة التي لا مهرب منها. فالقرب هنا يقابل الاتساع، كما أن الحتمية تقابل وهم الاختيار المطلق. وهذه المفارقة تضفي على الفضاء الروائي توترًا دلاليًا عميقًا: فكلما اتسعت المسافة، ازداد الشعور بأن المصير أقرب.

وبهذا المعنى، يمكن القول إن الرواية تُجسّد حركة مزدوجة: حركة أفقية في المكان المفتوح، وحركة عمودية في الوعي. الأولى تعكس الرحيل الجغرافي، والثانية تمثل الارتقاء أو الانكشاف الداخلي. وعند نقطة التقاطع بين الحركتين يتحقق "النداء من مكان قريب".

القرب بوصفه اقتراباً من الحقيقة

لا يعني القرب في الآية مجرد دنوّ مكاني، بل اقتراب الحقيقة من الإنسان بحيث لا تعود قابلة للتأجيل أو الإرجاء. وهذا البعد يعمّق قراءة المكان المفتوح في الرواية؛ إذ يصبح الفضاء الممتد طريقاً نحو لحظة كشف، لا نحو خلاص مؤجل. فالرحيل لا يؤخر المواجهة، بل قد يسرّعها.

وعليه، فإن استحضار قوله تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ يثير تحليل المكان المفتوح في الرواية، لأنه يكشف أن القرب ليس مسافة، بل وعي ومصير. فالشخصية، مهما ابتعدت في فضاءات متزامية، تظل قريبة من ندائها الداخلي، قريبة من لحظة الحقيقة التي تنتظرها في قلب الامتداد.

وهكذا يتحول المكان المفتوح من فضاء للهرب إلى فضاء للإنصات، ومن مسافة ممتدة إلى لحظة مكثفة يتجلّى فيها المعنى.

ثالثاً: الحركة في البر والبحر (سورة يونس: 22)

يتعزز حضور المكان المفتوح في الرواية من خلال ثنائية البر/البحر، أو الأرض/الفضاء الممتد، وهي ثنائية قرآنية واضحة في قوله تعالى في القرآن الكريم:

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ...﴾ (يونس: 22).

تعكس هذه الآية جدلية الأمان والخطر في الفضاء المفتوح؛ فالبحر فضاء رحب، لكنه قابل للتحويل إلى مصدر تهديد. وكذلك هو الحال في الرواية: فالمكان المفتوح يمنح وهم الحرية والانطلاق، لكنه يحمل في طياته القلق وعدم الاستقرار. وهو ما ينسجم مع رؤية يوري لوتمان الذي يرى أن الانتقال بين الفضاءات يمثل عبورًا من نظام دلالي إلى آخر (لوتمان، 1977، ص 222).

رابعًا: المكان المفتوح بين البعد والقرب

تكرر في النص القرآني مفاهيم “القرب” و “البعد” بوصفها ثنائيات دلالية تؤسس لرؤية عميقة للعلاقة بين الإنسان والوجود. ومن أبرز تحليلات هذا المعنى قوله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق: 16).

هذه الآية تؤسس لمفهوم القرب بوصفه حضورًا مطلقًا لا تحجبه المسافات. فالقرب هنا ليس قربًا فيزيائيًا، بل قرب علم وإحاطة ومصير. ومن هذا المنطلق، فإن ثنائية القرب/البعد لا تُفهم في إطارها الجغرافي الضيق، بل في بعدها الوجودي والروحي. وهذه الثنائية تُغني قراءة المكان المفتوح في رواية رحيل، إذ تكشف عن توتر عميق بين الامتداد الخارجي والاقتراب الداخلي.

البعد المكاني بوصفه بحثًا عن قرب مفقود

الرحيل في الرواية يبدو، ظاهريًا، حركة نحو البعيد: فضاءات مترامية، طرق ممتدة، آفاق لا نهائية. غير أن هذا التوجه نحو البعد قد يكون في جوهره محاولة لتعويض قرب معنوي مفقود؛ قرب من الذات، من الطمأنينة، من المعنى. فالإنسان حين يشعر بالانفصال الداخلي يسعى إلى تغيير المكان، كأن الجغرافيا قادرة على ترميم ما تصدّع في الوجدان.

غير أن المفارقة تكمن في أن البعد الجغرافي لا يضمن القرب الروحي. فقد يكون الإنسان في أقصى الامتداد، لكنه لا يزال حبيس قلقه، ملاصقًا لأسئلته التي لا تفارقه. وهنا تتجلى دلالة الآية: فالقرب حقيقة قائمة، سواء أدركها الإنسان أم حاول الهروب منها.

المكان المفتوح كفضاء لتكثيف الثنائية

المكان المفتوح، بحكم اتساعه، يتيح حضورًا أقوى لهذه الثنائية. ففي الصحراء، حيث الأفق بلا حدود، يتجلى البعد في أقصى صوره. لكن هذا الاتساع لا يلغي الشعور بأن ثمة حقيقة قريبة من الداخل. بل إن الفراغ المكاني قد يُكثف الإحساس بالقرب، لأن الصمت والامتداد يجعلان الذات في مواجهة مباشرة مع وعيها.

وقد أشار غاستون باشلار إلى أن الفضاءات الكبرى تُحدث في النفس نوعًا من الانكشاف، إذ يصبح الإنسان أكثر وعيًا بعمقه الداخلي كلما واجه اتساع الخارج (جماليات المكان، باشلار، 1984، ص 215). وعلى هذا الأساس، فإن المكان المفتوح في الرواية لا يُرسّخ البعد، بل قد يحفّز الإحساس بالقرب الوجودي.

القرب بوصفه حقيقة وجودية لا تُلغى

إذا كان البعد يُوحي بإمكانية الانفصال، فإن القرب في الآية الكريمة يُلغي هذا الوهم. فالإنسان لا يستطيع أن يتعد عن ذاته أو عن مصيره مهما ارتحل. إن القرب هنا قرب ملازم، يشبه “حبل الوريد” في شدة الالتصاق والضرورة. وهذه الصورة البلاغية تُبرز أن الحقيقة ليست خارجية يمكن الهروب منها، بل داخلية تسكن الكيان الإنساني.

وبالقياس إلى الرواية، فإن الرحيل نحو فضاءات بعيدة قد يكون محاولة للانفلات من سؤال الهوية أو من ثقل الماضي، غير أن السؤال يظل قريبًا، يتردد مع كل خطوة. وهكذا يصبح البعد حركة ظاهرية، بينما القرب هو الثبات العميق.

المفارقة السردية: الخارج البعيد والداخل القريب

تقوم الرواية على مفارقة لافتة: كلما ابتعدت الشخصية في المكان، اقتربت من وعيها. فالخارج يتسع، لكن الداخل يتكثف. ومن هنا يمكن القول إن المكان المفتوح يؤدي وظيفة مزدوجة: فهو يتيح تجربة البعد، لكنه يكشف في الوقت ذاته عن حضور القرب. وقد أشار يوري لوتمان إلى أن الانتقال بين الفضاءات في النص الأدبي يعكس انتقالاً بين مستويات الوعي (لوتمان، 1977، ص 222). وفي هذا السياق، فإن العبور إلى فضاء بعيد قد يكون انتقالاً نحو إدراك أقرب للحقيقة.

البعد والقرب كحركة جدلية

ليست الثنائية هنا صراعاً بين ضدين منفصلين، بل حركة جدلية يتداخل فيها البعد بالقرب. فالرحيل لا ينفى القرب، بل قد يكون وسيلة لاكتشافه. والمكان المفتوح لا يلغي مركز الذات، بل يعيد توجيهها نحوه.

وهكذا، فإن قراءة المكان المفتوح بين البعد والقرب تكشف أن الاتساع الجغرافي في رحيل ليس غاية في ذاته، بل مساراً نحو إدراكٍ أعمق. فالشخصية، وهي تعبر الفضاءات البعيدة، لا تفعل سوى الاقتراب من جوهرها، حيث تتلاشى المسافات، ويغدو القرب حقيقة وجودية تتجاوز كل حدود المكان.

تجليات المكان المفتوح في رحيل

الصحراء: فضاء التيه والاختبار

تتجلى الصحراء في الرواية بوصفها فضاءً مفتوحاً يرمز إلى الامتداد والفراغ والاختبار الوجودي. فالشخصية تتحرك في فضاء مترام يعكس شعورها بالضيق والبحث عن يقين. ويتقاطع هذا التصوير مع ما ذهب إليه غاستون باشلار من أن الفضاءات الواسعة تستثير في النفس إحساساً بالعزلة والتأمل العميق (باشلار، 1984، ص 183).

كما يمكن الاستئناس بالدلالة القرآنية للتيه في القرآن الكريم: ﴿يَتِيَهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ (المائدة: 26)، حيث يرتبط الفضاء المفتوح بفكرة الاختبار والضيق المؤقت الذي يقود إلى وعي أعمق.

الطريق: الحركة والنحول

يشكل الطريق فضاءً مفتوحاً دينامياً يتماهى مع فعل الرحيل نفسه. فالحركة عبر الطريق ليست انتقالاً جغرافياً فقط، بل انتقالاً نفسياً وفكرياً. ويؤكد حسن بحراوي أن التنقل بين الفضاءات في الرواية يعكس تحولات داخلية للشخصيات (بحراوي، 1990، ص 145).

كما يحضر مفهوم السير في الأرض في قوله تعالى في القرآن الكريم: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ (الأنعام: 11)، بما يحمله من دلالة معرفية وتأملية، وهو ما ينسجم مع رحلة البطل في الرواية.

المدينة: انفتاح مكاني واغتراب نفسي

رغم انفتاح المدينة من حيث الامتداد، فإنها تتحول إلى فضاء ضاغط يعمق شعور الشخصية بالاغتراب. وهذا ما ينسجم مع طرح عبد الملك مرتاض الذي يرى أن الفضاء قد يكون مفتوحاً في شكله، لكنه مغلق في دلالاته حين يفقد الإنسان فيه الإحساس بالانتماء (مرتاض، 1998، ص 81).

الأبعاد الدلالية للمكان المفتوح

البعد النفسي

يتحول الاتساع المكاني إلى مرآة للفراغ الداخلي، حيث تتماهى الصحراء والطريق مع القلق الوجودي. ويرى غاستون باشلار أن الصور المكانية الكبرى (كالامتداد والعلو) ترتبط مباشرة بالبنية التخيلية للذات (باشلار، 1984، ص 210).

البعد الاجتماعي

الرحيل في الرواية يعكس تحولات اجتماعية وضغوطاً تدفع الشخصية إلى مغادرة فضاءها الأصلي. ويشير يوري لوتمان إلى أن الانتقال بين الفضاءات يمثل عبوراً من نظام قيمي إلى آخر (لوتمان، 1977، ص 222).

البعد الرمزي والروحي (مفهوم القرب)

يكتسب المكان المفتوح بعداً روحياً حين يُقرأ في ضوء مفهوم "القرب" كما في قوله تعالى في القرآن الكريم:

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق: 16).

فالإتساع المكاني لا ينفي إمكان القرب المعنوي. وهكذا يصبح الرحيل الخارجي في الرواية بحثاً عن قرب داخلي أو طمأنينة روحية، في مفارقة بين البعد الجغرافي والقرب الوجودي.

خاتمة

يتضح من دراسة المكان المفتوح في رواية رحيل لـ محمد العيد بهلولي أنه ليس مجرد فضاء جغرافي يمتد أمام الشخصيات، بل هو فضاء دلالي متعدد الطبقات، يحمل في طياته لحظات التيه والبحث والانكشاف. فالمساحات المفتوحة في الرواية لا تمنح الحرية المطلقة، بل تكشف عن حتمية المواجهة مع الذات والأسئلة الوجودية، وتخلق إطاراً رمزياً تتداخل فيه الحركة والمصير، الاتساع والاقتراب، الأمان والخطر.

ويثري النص القرآني هذه القراءة، إذ تقدم الآيات المختارة أبعاداً عميقة لفهم المكان المفتوح. ففي سور سبأ (51-53)، نجد تصويراً للانكشاف والفرح حين يدرك الإنسان حقيقة موقفه، وما لم يعد بالإمكان الهروب منه، ما يعكس تجربة التيه والرهبة في فضاءات الرواية. أما سورة ق (41) فتقدم مفهوم النداء من "مكان قريب"، حيث يصبح القرب وجودياً ووعياً يتجاوز المسافة، فيتوازي مع اللحظة الحاسمة في الرواية التي تواجه فيها الشخصيات أسئلتها الداخلية، مهما امتدت المسافة في المكان. وأخيراً، تسلط آية يونس (22) الضوء على جدلية الأمان والخطر في الفضاء المفتوح، إذ يمكن أن يكون الامتداد الجغرافي وهماً بالطمأنينة، بينما يكشف الحدث المفاجئ عن هشاشة الإنسان أمام مصيره، تماماً كما يواجه البطل في رحيل مخاطر الرحيل والتغير.

من خلال هذا التوازي بين النص الروائي والنص القرآني، يتضح أن المكان المفتوح يتحول إلى بنية رمزية تجمع بين الفضاء الجغرافي والمعنى الوجودي. فهو مساحة للتيه والتحول، لكنها في الوقت نفسه مسرح للوعي والانكشاف، حيث تتلاقى الحركة المكانية مع حتمية المواجهة الداخلية. وبهذا تكون الرواية قد استخدمت المكان المفتوح ليس كخلفية للأحداث، بل كعنصر أساسي لإيصال عمق التجربة الإنسانية، بما يتناغم مع البعد الروحي العميق الذي تحمله الآيات القرآنية، فتكتمل بذلك قراءة المكان بوصفه رمزًا للحركة، القرب، البعد، والمصير.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم، ترجمة وتفسير، دار الفكر الإسلامي، الطبعة 2015.
- غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، دار الأندلس، 1984.
- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، 1990.
- يوري لوتمان، بنية النص الفني، 1977.
- عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، ديوان المطبوعات الجامعية، 1998.
- محمد العيد بهلولي، رحيل، دار نشر الجزائر، 2010.
- باشلار، غ. (1984)، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، دار الأندلس.
- بحراوي، ح. (1990)، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي.
- لوتمان، ي. (1977)، بنية النص الفني، موسكو: منشورات العلوم.
- مرتاض، ع. م. (1998)، في نظرية الرواية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.